طليطلة

أتيحت لنا أثناء اقامتنا بمدريد فرصة زيارة بعض ما يحيط بها من الضواحي القريبة منها كالاسكوريال ومدينة طليطلة لقضاء سحابة يوم كامل في كل منهما حسب الخطة الموضوعة بمعرفة قادة البعثة والمختصين بوزارة الخارجية الأسبانية . وقد كنا نتمنى أن تطول اقامتنا في كل بلد نزورها لنكون أكثر تعرفاً بها وبمعالمها وآثارها ، إلا أن ضيق الوقت وارتباطنا بعودة الباخرة جعلنا نخصص لطليطلة يوماً واحداً ، ومع ذلك فلن أتركك تسبح في خيالك لتتصور هذه المدينة العربية ، وترسم لها صورة قد تكون غير حقيقية ، اعتماداً على ما قرأته عنها أو ما سمعته من أخبارها . بل سأقص عليك ما شاهدته فيها بدون مبالغة لتحكم بنفسك على حقيقتها . وبالرغم من ضيق الوقت وكثرة معالمها الجديرة بالزيارة — كما علمنا بعد — فقد أمكننا الالمام بالشيء الكثير عنها .

في صباح اليوم الثاني من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ تركنا منزل مايور سيزار كارلوس Colegio Mayor Cesar Carlos مقر سكن طلبة الجامعة بمدريد الذي نزلنا فيه مدة إقامتنا بهذه المدينة ، وبممنا نحو الجنوب شطر طليطلة وكان علينا أن نقطع سبعة وأربعين ميلاً لنصل إليها بعد ساعتين تقريباً .

فاخترقنا أحياء مدريد الحديثة وشوارعها المتسعة المنظمة على أحدث النظم ، وقد بلغ عرض بعضها — كالشارع الكبير Grand Via — نحو المائة متر ، في حين أن شارع فؤاد الأول بالقاهرة — الذي يعد من أعظم الشوارع عندنا — لا يصل عرضه الى ثلث هذا القدر .

سرنا في هذا الشارع الكبير في القسم المخصص لسيارات حتى أصبحنا على أبواب مدريد الجنوبية . فقلت المنازل المحيطة به وتناثرت (الفيلات) على جانبيه وتباعدت

المسافات بينها حتى تركنا مدريد وراءنا لمسافة طويلة . وتوسطنا هضبة المزيتا التي ترتفع عن سطح البحر أكثر من ألفي قدم .

سرنا في طريقنا المرصوف المقسم وسط حدائق الكروم والخروب وحقول الحبوب وغيرها ، وكانت تتراءى لنا من حين لآخر بعض الوديان والجبال بترابها الحمراء التي فتتتها عوامل التعرية من الصخور التي تحتها . ثم ما لبثت هذه الجبال أن ازدادت بالقرب من طليطلة . وتحتل هذه المدينة نفسها منطقة مرتفعة من الصخور الجرانيتية التي استعملها السكان في بناء دورهم وقلاعهم .

عبرنا نهر التاجة الذي يمر بشمال المدينة فوق قنطرة تعرف بهذا الاسم ، يرجع بناؤها الى عهد العرب . وتهادت سيارتنا في ممرها مجتازة شوارع طليطلة حتى وصلت الى ميدان كبير بوسط المدينة .

هبطنا منها مع رفقتنا الاسبانيين فرحين مستبشرين بزيارة بلد عربي في مظهره وإن اختلفت لغة ودين سكانه متحد في مبانيه وان اختلفت في طرزها من مكان لآخر .

في الشوارع العامة والميادين الكبيرة تجد المباني الشاهقة ، مقامة على بوائك ضخمة تعلوها دور السكن بشرفاتها وشرفياتها ، وتحت هذه البوائك محال التجارة والمقاهي . وتشبه هذه الشوارع في نظامها شارع محمد علي بالقاهرة وما ذلك إلا أثر معماري خالد من عهد العرب في العصور الوسطى انتقل معهم من الشرق .

بينما نجد في الأحياء الأخرى الشوارع الضيقة الملتوية المرصوفة بقطع كبيرة من الأحجار أقيم على جانبيها جدر دور مرتفعة ، قليلة الفتحات الخارجية (من نوافذ وشرفات) وان وجدت فتحجبها شرفيات من الخشب المخرط حتى لا يتيسر للمار رؤية من يدل منها من أهل الدور ، في حين أن هذه الفتحات كثيرة في الداخل ، وتفتح جميعها على أفنية داخلية كما في قرطبة وغرناطة . وهي المناطق العربية التي تركز فيها حكم العرب ستة قرون . ولا غرو فان طليطلة كانت تحت الحكم العربي زهاء الأربعة قرون ، استعرب خلالها ما تبقى من سكانها من اليهود والمسيحيين واتخذوا طابع العرب ولغتهم ، وانصهروا مع الفاتحين ، ونتج من هذا المزيج العديد حضارة ازدهرت في عهدهم ، لم تبلغ شأواً مثل ما بلغته في عهد العرب .

ولقد ترك العرب آثارهم في الأرض والسكان ما جعل الأسبانيا طابعاً خاصاً يميزها عن بقية البلاد الأوربية . ويظهر هذا الطابع بصورة واضحة بصفة خاصة في آثارها الرائعة بطليطلة . ولقد عهد بذلك الاسبانيون أنفسهم فيقولون : إن طليطلة مثل صادق للآثار التي تركها العرب في أسبانيا سواء في المباني أو في المرأة .

وجولة صغيرة خلال شوارعها تتيح لك الفرصة للتحقق من الجمال الفني والطبيعي وخاصة في النساء كما ترى في الشكل رقم (١)

فقد احتفظت المرأة الاسبانية بدقة التقاطيع العربية كالأنف الطويلة والعيون السود الواسعة والشعر الفاحم مع أنوثة فياضة وجاذبية ساحرة ، كما ورثت من العرب لون البشرة البيضاء المشوبة بحمرة خفيفة تزداد قليلاً إذا خجلت فتكسبها خفة ودلالاً عجباً — هذا إذا رأيتها في الشارع دون أن تكلمها أما اذا تجاذبت معها أطراف الحديث حدثتك عن دار وفي حياء محتفظة بعاداتها وتقاليدها الشرقية ولا يتسع المجال الآن للكلام عن المرأة الأسبانية بإسهاب ، إذ أن هذا يطول شرحه وإنما أكتفي بهذا القدر الآن عن المرأة الاسبانية . لأنها أول ما يلفت نظرنا أثناء تجوالنا في شوارعها ونحن في طريقنا الى القصر أو الكزار . والكزار اسم عربي يطلق على قصور في مدن مختلفة بأسبانيا . ففي أشبيلية (الكزار) وفي طليطلة (الكزار) الذي نحن بصدده الآن .

سرنا نحو الكزار في طرق ضيقة ملتوية أخذت في الارتفاع تدريجياً الى مرتفع عال يعد أعلى بقاع طليطلة . ولما أشرفنا على هذه المنطقة هالنا أمر كنا لا نتوقعه إذ وجدنا أنفسنا بين خرائب وأطلال بقايا بناء ضخم تناثرت هنا وهناك ، كأنما قاومت القنابل الثقيلة بالتعاون مع مدافع الطيارين فدمرت بعض هذا البناء تدميراً . في حين صمد البعض الآخر ليشهد عدوان المغيرين .

ظننا أول الأمر أننا طارئين منطقة خربة فدعونا الى جهة أخرى لنصل الى الكزار فيما بعد . وبينما نحن في طريقنا إذ وجدنا أنفسنا أمام باب ضخم ، وطلب منا دخول الكزار لمشاهدة أبوته الباقية وآثاره الداخلية . فدهشنا من أمره وعلت وجوهنا حيرة ، وأخذنا نتساءل في لهفة عن حقيقة سر الكزار .

وأمام هذا الأثر الخالد أخذ زميلنا الاسباني (كاستيلو) يقص علينا قصته. واليك أثرها:

نشبت الحرب الأهلية في اسبانيا عام ١٩٣٦ بين الاسبانيين الملكيين والشيوعيين الحمر كما كانوا يسمونهم، وليس يخاف على أحد انتشار عدوى الشيوعية في البلاد وأثرها الخطير في التغلب على النظم القائمة حتى استطاعت التضليل بالرأي العام في اسبانيا في هذا العام، واشتعال نار الحرب ضد الملكية، ابتدأت الثورة في عاصمة مدريد فتهدمت من آخرها، ثم انتقلت الى دور الحكومة فالقصر الملكي، وكاد الحمر ينجحون في حربهم لولا هرب الملكية وحاشيتها وحرسها الى الكزار واتصالها، فحاصرها الشيوعيون نحو ٧٠ يوماً، لاقى خلالها المدافعون عن الكزار كل الويل حتى كادوا أن يسلموا في آخر لحظة من هول شدة قصف مدافع الأعداء عليهم حتى تهدَّم معظمه وخاصة طباقه العليا وسقفه وبعض جوانبه كما هو مبين بالشكل رقم (٢).

وقد نفدت كل المؤونة الهمَّ إلاَّ من بعض بقايا الحبوب وكسر الخبز التي لا تقيم أود المدافعين عنه كما نفد الغاز وكثر عدد الجرحى داخل الكزار وصار الأطباء يعالجونهم في ضوء الشموع كما بليت أسلحتهم الطبية. ومع ذلك فقد استخدموها حتى آخر رمق فيها لانقاذ ما يمكن انقاذه من الأرواح البريئة. أما الذين قتلوا فقد دفنوا في جناح خاص بالكزار بالدور الثاني. وقد بلغ عددهم ١٠٤ قتيل نقشت أسماؤهم على أحد جدران هذا الجناح أمام مقابرهم. وقبل نهاية الحصار أسرت جيوش الحمر ابن قائد الكزار المدافع عنه «الكولونل ماسكاردو» Mascardo وكان عمر ابنه سبعة عشر عاماً، واتصلوا بأبيه تليفونياً يهددونه بقتل ابنه في الحال إذا لم يسلم الكزار. واستطاع الابن الاتصال بأبيه تليفونياً يرجوه عدم التسليم، وأنه سيفضي بحياته في سبيل نصرتهم في النهاية. فلم يسلم الأب الكزار وقتل الابن وقد تمَّ لهم النصر أخيراً على يد الجنرال فرانكو الذي استطاع محاصرة الحمر من الخارج وهزيمتهم. وقد احتفظت الحكومة الاسبانية بهذه الذكرى الخالدة فسجلتها على لوحة تذكارية كتب عليها قصة التسليم وتهديد القائد وتضحية ابنه بتاريخ ٢٩/٧/١٩٣٦، ووضعت بين صورتيهما في حجرة القائد نفسه بالطابق الثالث من الكزار وتعمدت الحكومة الاسبانية عدم اصلاح الكزار بل احتفظت بحالته الراهنة للذكرى

شكل ١ — هرمي ملابسها الوطنية

شكل ٢ — الكزار بعد الثورة

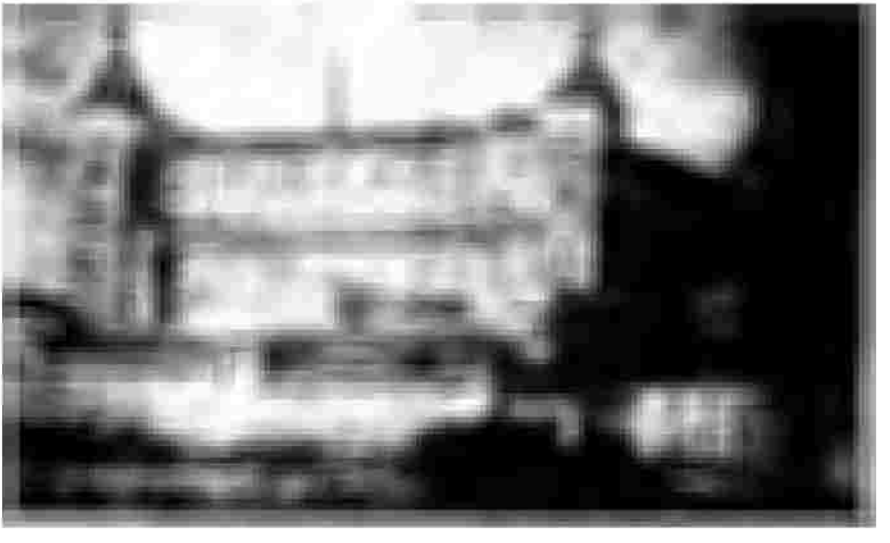

شكل ٣ — الكزار قبل الثورة

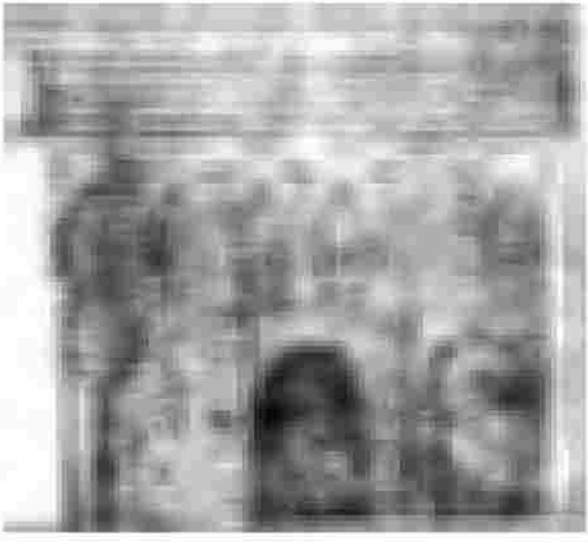

شكل ٤ — مسجد باب مردوم

شكل ٦ — تحف من الذهب الخالص الذي اكتشفه كولمبوس في القرن الخامس عشر

شكل ٥ — كنيسة سانتا ماريا البيضاء

والموعظة للاجيال القادمة من الاسبانيين ورمزاً للوطنية وقوة العزيمة والتضحية في سبيل نصرة بلادهم ضد أي طغيان غاشم .

هذا هو الكزار بشكله الحالي بعد أن تهدّم معظمه . أما الكزار الأصلي فانه بناء مربع شاهق الارتفاع أقيم في كل ركن منه برج ، وله شرفات وبوائك في واجهاته ، كما هو مبين بالشكل رقم (٣) ويمكنك من مقارنة شكلي الكزار قبل وبعد الثورة أن تدرك ما حلّ به من الخراب والدمار .

* * *

طفنا بأرجاء الكزار لنتحقق مما وصل إليه من الداخل فاذا به في حال يرثى له ، فقد أعدّ الطابق الأول للطهي وحفظ الأسلحة ، بينما خصص جناح خاص بالطابق الثاني لدفن الموتى ، يقابله من الجهة الأخرى جناح آخر يتكوّن من دهليز طويل مظلم ينفذ اليه الضوء من فاقذة صغيرة في أعلا الجدار ، وقد مدت على أرضه قليل من الوسائد القديمة البالية تعاف الكلاب النوم عليها لرداءتها وقذارتها . وكان ينام عليها المرضى . وأمامها منضدة الطبيب (المشرحة) التي خصصت لاجراء العمليات الجراحية عليها ، وفي جانب آخر من هذا الكزار أقيم معرض صغير احتفظ فيه ما تبقى من مخلفات الأدوية وبعض الحبوب وكسر الخزف والأسلحة القليلة وقد احتفظ بالطابق الثالث آثار حجرة القائد ومكتبه وتليفونه الذي تلقى به التهديد ، أما باقي هذا الطابق فقد تهدّم ولم يبق منه الاّ بعض الجدران الداخلية .

بعد أن طفنا بأرجاء الكزار خرجنا ثانياً حيث قد قاربت الشمس من كبد السماء واشتدّ الحر وقلصت النفوس . ولم يتقدنا إلاّ نتيات صغيرات تبدو عليهم سمحة من الجمال الريفي الاسباني ، وقد وقفن أمام الكزار في ملابس لطيفة ويرتدين نعالاً من القماش والقطن تشبه صندل الأحذية (الكاوتشوك) وقد أمسكت كل منهن جرة من الفخار بها ماء تندبه الابريق ، يطلق عليها الاسبانيون كلمة (بلايخو) وينادين (أجوا . أجوا) ماء ... ماء فشربنا لقاء دريهمات قليلة .

هدنا ثانياً لمجرب هوارع طليطلة الضيقة ، نستظل بجدرانها المرتفعة ، ماوين ببعض أبوابها العتيقة والقلاع الشاهقة التي ترجع الى العصور الوسطى ، حتى وصلنا الى سور ضخم

يحيط بالمدينة من الجهة الشمالية يشبه في علوّه وسعاته أسوار سلاح الذين رأيناها التي تصل بباب النصر وباب الفتوح في شمالي القاهرة.

يقع خارج هذا السور حديقة فسيحة تظللها أشجار باسقة. وتحت هذه الأشجار ومجاور كوخ صغير (بوفيه) جلسنا على كراسي وموائد أعدّت لنعتد لكل قادم. فتناولنا ما تيسر مما جلبناه معنا من الغذاء، واحتسينا القهوة وشرب البعض الآخر مشروبات مثلجة، وقطعنا شطراً من الوقت حتى استرحنا قليلاً، ثم عدنا ثانياً لمستأنف السير لزيارة باقي معالم طليطلة الغنية بها.

وقد كان بطليطلة عدد كبير من المساجد تهدّم معظمها ولم يبقَ منها إلا عدد قليل تنكر لها الدهر وحولت الى معابد وكنائس بعد أن تغلب عليها المسيحيون في القرن الحادي عشر واتخذها الفونس السادس عاصمة له سنة ١٠٨٥.

من هذه الكنائس سانت توم التي كانت مسجداً ثم أدخل عليه بعض التحويلات القوطية في القرن الرابع عشر لتحويله الى كنيسة.

وفي أحد شوارع طليطلة الضيقة التي لا تتسع لأكثر من مرور عربة واحدة بها، وقفنا أمام مسجد «باب مردوم» يحيط به فضاء غير متسع أوتقدم عنه الشارع بدرجتين. وقد كان هذا البناء مسجداً أقيم ليذكر فيه اسم الله عام ٩٦٠ م تدل على ذلك الكتابة الكوفية التي تعلو واجهته. ثم تحول الى كنيسة Ta. Cristo de la Sue، أما الآن فهو أثر غير مستعمل احتفظت به للحكومة الاسبانية في عداد آثارها التذكرية والتاريخية.

وتنقسم واجهته ثلاثة أقسام أقيمة يتكوّن القسم الأسفل منها من دعامتين بارزتين تقسمه ثلاثة عقود: أكبرها العقد الأوسط وهو عقد دائري. يليه العقد الأيمن على شكل حدوة الفرس، والأيسر مفصص. ويظهر أن هذا الخلاف بين العقود الثلاثة راجع الى ما تقاول الواجهة من الاصلاح. وقد بني ذلك القسم بالحجارة المشذبة والطوب الآجر في مداميك متناظمة.

أما القسم الأوسط فقد بني بالحجارة الغير مشذبة تبرز منها عقود متناظمة حواليها على شكل حدوة الفرس مبنية بالطوب شأنها في ذلك شأن باقي عقود المسجد.

أما القسم العلوي فقد بني أيضاً من الطوب ويتكوّن من أشرطة ضيقة أقيمة من الزخارف المعمارية، أهمها وأكثرها اتساعاً الشريط الأوسط، وقد بني من الطوب الذي استخدم في زخرفته على شكل معينات هندسية. ويعلوها شرائط من الكتابة الكوفية يبتدئ بالبسملة وينتهي بتاريخ البناء كما هو مبين بالشكل رقم (٥)

ويظهر أن العرب نقلوا فكرة استعمال الطوب في البناء والزخرفة من العباسيين سائرًا إلى مصر في جامع أحمد بن طولون ، ثم الى شمال أفريقيا وأسبانيا .

دخلنا هذا المسجد فاذا نجد أنفسنا في ردهة مربعة تتوسطها أربع عمد ، مختلفة تيجانها يظهر أنها نقلت من كنائس قديمة . وتحمل هذه الأعمدة اثنتي عشر عقداً تقسم الردهة الى تسعة أروقة متساوية متطاة بقباب أكثرها ارتفاعاً القبة الوسطى . وتلتصق بكل قبة من الداخل عقود متقاطعة في أشكال هندسية مختلفة في كل واحدة من القباب . وهذه الأشكال إما مجموعة متعددة الأضلاع أو مسينات أو مربعات أو مستطيلات . وهذه تقسم بدورها الى مثلثات وهكذا .

يلي هذا القسم مكان الصلاة وهو يرتفع عن الأول بثلاث درجات ويتعهده محراب على جانبيه صفان من الأعمدة الضم . ومما لفت نظرنا أن بعض الجدران زخرفت بالفريسكو على بعضها رسوم آدمية بيزنطية يظهر أنها من آثار الكنيسة القديمة التي تحول إليها المسجد فيما بعد .

وبالقرب من مسجد باب مردوم كنيسة سانت ماريا البيضاء Santa Maria La Blanca وهي مثل آخر للمساجد التي نالت من صروف الدهر ما لم ينله أي مسجد آخر ، فقد حوله اليهود في القرن ١٣ ، ١٤ الى معبد وغيروا ما كان به من الكتابة العربية الى عبرية . ثم استولى عليه المسيحيون وأسموه كنيسة عام ١٤٠٥ . ويقال أنه كان ملجأ للفساء ١٥٥٠ . ثم استولى عليه البوليس وحولوه ثكنة . ثم الى اصطبل لخيولهم . وقد قطنت الحكومة الاسبانية إلى ذلك فأخلته وأصلحت بعض أجزاءه .

وبعد هذا المسجد مثل رائع لفن المدجرن الذي يعتبر حلقة اتصال بين الفن الشرقي والفن القوطي ، ويجمع هذا الفن بين صفات الفن العربي والروماني والفسيفوسي القديم . فأخذ من الفن العربي استخدام الطوب في البناء والجص في الزخرفة ، كما استعمل الخزف والجدائل والتقسيم . والمسجد من الداخل روعة وجمال تأخذ بلب الناظر اليه . ويتكون من قاعة كبيرة بها خمسة صفوف من الأعمدة الضخمة ذات التيجان النخيلية من الجص المخرم المكون من ألسنة فروع نخيلية عجيبة ، تنتهي أطرافها بحلقات يتكون في مجموعها شكل بديع . وفوق كل صف من هذه الأعمدة ستة عقود على شكل حدوة الفرس مغطاة بطبقة ناصعة البياض من الجص . ويرجح أن سبب تسمية ذلك اسم « سانتا ماريا البيضاء » . وفوق هذه العقود صف آخر من العقود المفصصة لمزيد من ارتفاع السقف كما هو مبين بالشكل رقم (٥)

ويكون الباب الخارجي من حشوات خشبية تشبه الأبواب الأيوبية بمصر

وقد حرص الاسبان على ألا تفوتنا فرصة زيارة كتدرائية طليطلة . وفي طريقنا إليها عرجنا على متحف الجريكو Casa del Greco ويعد هذا المتحف من أعظم المتاحف الفنية لما يوجد فيه من روائع رسوم الفنان الاسباني جريكو الذي يعد من أعظم مصوّري معالم هذه المدينة. فقد استطاع أن يسجل بريشته جميع الحضارات التي خلفت آثارها في طليطلة . حتى ليقال ان طليطلة تعد عاصمة للفنون في اسبانيا ليس لكثرة ما بها من الآثار والكنوز وإنما لوجود رسوم الجريكو بها . وأخيراً وصلنا الى كاتدرائية طليطلة التي ابتدئ في بنائها ١٢٢٧ على الطراز القوطي ونظراً لانها لم تتم إلا في القرن ١٥ فقد نجد بها بعض التأثيرات الباروك وعصر النهضة . ويبلغ طولها من الداخل ٣٩٥ وعرضها ١٧٨ وهي مقسمة خمسة أروقة وتحيط بالزخارف والتراقيد الزجاجية الملونة .

وتحتفظ الكاتدرائية بكثير من الكنوز والكتب الفنية والأعمال الرائعة لأشهر الرسامين الاسبانيين أمثال جويا وجريكو وتيتيان ، وغيرهم كما تحتفظ بكثير من الكنوز المهداة إليها وأهمها تحفة رائعة من قطعة من الذهب الخالص الذي اكتشفه كولمبوس في أمريكا ، وزنها ١٦ كيلو جرام صنعت في شكل بديع يمثل المسيح . شكل رقم (٦)

أوشكت الشمس على المغيب حينما عدنا الى الميدان الرئيسي الذي تركنا فيه سيارتنا بعد قضاء يوم حافل بالآثار التي تشهد بحق على ما كانت عليه طليطلة من عزّ وحضارة . وقد شهد بذلك المستشرق الاسباني جايجنوس حين قال: «لقد سطعت في اسبانيا أول أشعة لمنور المدينة التي نورت سواها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفي مدارس قرطبة وطليطلة جمعت الجذوات الأخيرة لعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء وحفظت بعناية . والى حكمة العرب وذكائهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها» . ولقد نبغت طليطلة في صناعة الأسلحة ولا تزال شهرتها الى اليوم في أنواع صغيرة كفتت بالذهب والمينا ، تعرض للبيع للزائرين وهواة جمع التحف مما دعا بعضنا للتسابق لشراء ما تيسر من المجوهرات وقطعات أورق وغيرها من التحف التي لها طابع خاص قلما يوجد في أي بلد آخر من بلدان العالم . ثم احتللنا مقاعدنا في سيارتنا وعدنا الى مدريد قرحين بهذه الزيارة الكريمة .

محمد رجب البيومي
دبلوم في الآثار الاسلامية